# العدل مفتاح السعادة

للأستاذ عبد المنصف محمود عبد الفتاح

( ١ )

العدل هو القيام بالحقوق على الوجه الأكمل . ووضع الأمور فى نصابها من غير إفراط ولا تفريط ، وهو رأس الفضائل ، وتاج المكارم وأساس الخيرات ، وعنوان الكمالات . . به تنتظم أمور الدنيا والدين ، وعليه تتوقف سعادة المجتمع . من اتصف به : كان محبوبا عند الله ، جديرا بحسن رعايته ، وعظيم مثوبته ، قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » وروى مسلم فى صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المقسطين ( أى العادلين ) عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزوجل وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا ، وإنما كانوا على منابر ؛ لأنهم رفعوا من شأن المظلومين ، ونصفوهم من الظالمين . . وإنما كانت المنابر من نور ؛ لأنهم نوروا للناس طريق الخير ، وقادوهم إلى مافيه سعادتهم بسبب عدلهم . وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلسا : إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى ، وأبعدهم منه مجلسا : إمام جائر » وكتب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى : أما بعد فإن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته ، وإياك أن تزيغ فيزيغ عملك ؛ فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة ، نظرت إلى خضرة من الأرض ،

فرتعت فيها تبتغى بذلك السمن (الرتع قال المصباح : رتعت الماشية رتعا من باب نفع ورتوعا : رعت كيف شاءت ) ؛ وإنما حتفها فى سمنها والسلام .

ومحبوبا عند الناس : مالكا بعدله أفئدتهم ، مستوجبا الثناء والمعونة منهم ، آمنا على نفسه وماله وعرضه فيحيا حياة طيبة ، ويعيش عيشة راضية . . روى أنه لما وفد رسول ملك الروم على أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بحث عنه فلم يجده ، حتى ألفاه نائما تحت ظل شجرة ، وراع موفد دولة الأباطرة تلك البساطه التى يعيش فى نعمتها عاهل المسلمين ، وأمير المؤمنين ، وهاله الفارق الكبير بين هرقل الذى يخب فى الخز والديباج وينعم بالسرر المفروشة ، والأرائك المنضودة ، يحيط به الأقيال والقواد ويحرسه الفرسان والأجناد . . وبين هذا الرجل : المرقع الثياب ، النائم على التراب فى ظل الشجرة ، لايحرسه الا اطمئنانه على رضا الناس عنه . فقال كلمته المشهورة : « يا عمر عدلت فأمنت فنمت » . قال شاعر الشعب المرحوم حافظ ابراهيم :

أمنت لما أقمت العدل بينهم
فنمت نوما قرير العين هانيها

وقديما قيل : عدل السلطان ، أنفع من خصب الزمان ، وإذا رغب السلطان عن العدل ، رغبت الرعية عن طاعته ، وإذا عدل فى حكمه ، وجب عليها محبته .

وهو مطلوب : من الرجل فى أهله ومن القاضى فى محكمته ، كما هو مطلوب : من الوزير فى وزارته ، والحاكم الأعظم فى رعيته .

وقد جعل الاسلام كل من نيط به عمل من الأعمال ، أيا كان نوعه مسئولا عن العدل فيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

فهؤلاء جميعا مسئولون بين يدى الله تعالى عن العدل فى أعمالهم فمن حفظ ما وكل إليه من الأعمال وقام به على أكمل وجه ، فله جزاء الحسنى ، ومن ضيعه وفرط فيه فله سوء العقبى . روى ابن حبان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه . حفظ أم ضيع » زاد فى رواية : « حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » .

تفقد أحوال الرعية :

الحاكم العادل : هو الذى يظل دائب السهر على مصالح رعيته ، يسوس أمورهم ، ويرعى شئونهم ، يفرح لفرحهم ويتألم لآلامهم ، يحس بإحساسهم ، ويشعر بشعورهم ، يغيث الملهوفين ، ويفرج كربة المكروبين ، ويستجيب لآنات المتوجعين ، ويكفكف بيده الرحيمة دموع المنكوبين ، يعمل على راحتهم ، ويسعى فى سبيل إسعادهم . . روى عن نافع : أن رفقة من التجار قدموا المدينة ، فذهب عمر بن الخطاب ( وهو خليفة ) يحرسهم ومعه عبد الرحمن ابن عوف فسمع بكاء صبى ، فتوجه عمر نحو أمه ، وقال لها : اتقى الله وأحسنى إلى صبيك !! ثم سمع بكاءه مرة ومرة . . فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه . فأتى أمه فقال : ويحك إنى لأراك أم سوء ! ! مالى أرى ابنك لا يقر منذ أول الليل ؟ قالت : قد أضجره منذ أربع ليال أمر الفطام قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض من بيت المال ، إلا للطفل الفطيم . قال لها : لا تعجليه . فصلى الصبح وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء . فلما سلم قال : يا بؤسا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين ! ! لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإننا نفرض لكل مولود .

الراعى ينبغى أن يكون حازما :

عن على كرم الله وجهه أنه قال : يجب على الوالى أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه ، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ، ولا إساءة مسىء ، ثم لا يترك أحدا منهما بغير جزاء ، فإن ترك ذلك تهاون المحسن ، واجترأ

المسيء ، وفسد الامر ، وضاع العمل وقال إبراهيم بن العباس إذا كان للمحسن من الثواب مايقنعه ، والمسيء من العقاب مايقمعه ، إزداد المحسن فى الإحسان رغبة ، وانقاد المسيء للحق رهبة . . فليكن الراعى على بينة من أمر رعيته ، مجازيا كلا عن عمله ، ليصلح حالها ويستقيم أمرها . قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما
فليقس أحيانا على من يرحم

روى أن جبلة بن الأيهم آخر ملوك بنى غسان : لما أسلم وقدم مكة حاجا ، مضى يطوف بالبيت . فداس رجل من بنى فزارة ذيل ردائه ، فانحلت أزراره ، فلطمه جبلة على وجهه ، فاستعدى الفزارى عليه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فدعا به وخيره بين أمرين : إما أن يرضى الفزارى ، واما أن يقيده منه . قال جبلة ياأمير المؤمنين أتقيده منى ( يعنى أتتركه يقتص منى ) وأنا ملك وهو سوقة ؟ قال عمر : ولكن الإسلام قد سوى بينكما .

وقد أثنى الله عز وجل فى كتابه الكريم ، على القائد الحكيم والبطل العظيم : الذى آتاه من كل شىء سببا فأتبع سببا ، لأنه وجه قواه ، لتعذيب أهل الشر والضلال ، وإثابة أهل الخير والإيمان : « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » فوضع لقوته دستورا صالحا ، يطبقه عمليا على أفراد رعيته والداخلين تحت إمرته ، والخاضعين لسلطته . . من حيث التعذيب أو الإثابة : قال أما من ظلم (أى نفسه ولم يقبل دعوتى ، وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك بالله ) فسوف نعذبه ( أى بالقتل عن قتادة رضى الله عنه أنه قال : كان يطبخ من كفر بالله فى القدور ومن آمن أعطاه وكساه ) ثم يرد إلى ربه ( أى فى الآخرة ) فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا » .

وروى أن بعض الملوك بلغه سياسة ملك آخر ، وما اتصف به من حكمة وحزم ، وسداد فى الرأى وبصر بالعواقب ، فكتب إليه :

قد بلغت من حسن السياسة مبلغا لم يبلغه ملك فى زمانك فأفدنى عن الذى بلغت به ذلك؟ فكتب إليه : لم أهزل فى أمر ولا نهى ، ولا وعد ولا وعيد واستكفيت أهل الكفاية ، وأثبت على الغناء ( الغناء بفتح الغين : النفع ، وقيل : الاكتفاء ) لا على الهوى ، وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت ووداً لم يشبه كذب ، وعممت القوت ومنعت الفضول .

الحكومة الصالحة :

سئل الفليسوف الصينى القديم كنفوشيوس : ماهى الحكومة الصالحة ؟ قال : هى التى تحظى بثقة الشعب ، فعاد وامرة ثانية يسألون كنفوشيوس : ولكن كيف تحظى الحكومة بثقة الشعب؟ قال : يصلح الحاكم نفسه ، وإذا فعل فهو سوف يصلح من حوله . ثم بعد ذلك يسرى الاصلاح إلى الجميع . ثم بعد ذلك يثق الشعب فى الحكومة .

وبينما هو سائر فى طريقه . ذات يوم فى حشد كبير من تلاميذه : رأى امرأة تنوح على قبر فسألها عن حالها فقالت . إن هذا القبر يضم رفات زوجى وأبى وإبنى !! فتعجب الحكيم وسألها كيف ماتوا جميعا ؟ فقالت : عدا على كل منهم نمر من نمور الغاب ! ! فازداد عجب الحكيم وسألها : ماهقامها بأرض مشئومة تعدو فيها النمور على ساكنيها ؟ فقالت ، إنى أقيم بها ، لأن حاكمها لا يضطهد الناس . . فالتفت إلى تلاميذه وقال أرأيتم يا أبنائى اذكروا دائما : أن الحكومة الظالمة أشد فتكا من النمور وأقسى . وقيل : لا يكون العمران حيث لا يعدل السلطان . وقد قيل فى قول الله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » انه وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال : اذكر يا أمير المؤمنين يوم الأذان قال : فما يوم الأذان ؟ قال : اليوم الذى قال الله فيه : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين » فبكى سليمان وأزال ظلامته .

« يتبع »

عبد المنصف محمود عبد الفتاح

واعظ مركز شبين القناطر